جهـود الشـيخ ابن عثيمـين

في

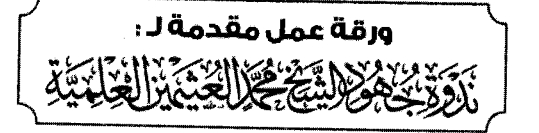
السياســة الشــرعية

إعداد

د. إبراهيم بن محمد بن قاسم الميمن

مستشار معالي مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

والأستاذ المشارك في المعهد العالي للقضاء



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

جهود الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في السياسة الشرعية وأثر ذلك في تحقيق الأمن الفكري

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن العلماء ورثة الأنبياء، كما قال النبي ﷺ، وقد جعل الله في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويبصرونهم من العمى، فالعلماء الربانيون هم قادة الأمة وسراتها، ووجودهم في أي أمة رحمة، وفقدهم ثلمة في الإسلام، لأنهم مورد التأسي والاقتداء، ولا يزال الناس بخير ما كان علماؤهم مرجعهم في شؤونهم، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ومن له في الأمة لسان صدق عام، بحيث يثنى عليه ويحمد في جماهير أجناس الأمة فهؤلاء هم أئمة الهدى ومصابيح الدجى، وغلطهم قليل بالنسبة إلى صوابهم، وعامته من موارد الاجتهاد التي يعذرون فيها، وهم الذين يتبعون العلم والعدل، فهم بعداء عن الجهل والظلم، وعن اتباع الظن وما تهوى الأنفس»[1]، ونحسب أن شيخنا العالم العامل العلامة الفذّ الزاهد العابد الشيخ محمد بن صالح العثيمين، رحمه الله وأسكنه فسيح جنته، من هؤلاء النوادر الذين صدقوا الله، وصدقهم الله، ووضع لهم القبول في الأرض، وأنزل الله محبتهم في قلوب عباده، واختصه بالمواهب الربانية، والقدرات الفذة التي قلّ أن تجتمع في رجل، وقد كان يبذل جهدًا متواصلاً مباركًا

(١) الفتاوى ١١/ ٤٣.

في تعليم الجاهل، وإرشاد السائل، وإجابة المستفتي ونفع الناس، وهداية الضال، واستغرق كل ذلك عليه جهده ووقته وعمره، حتى حينما قدّر الله عليه - ولا راد لقدره - أن يصطفيه ليبتليه الابتلاء الذي كان نهاية أجله، وأصيب بالمرض لم يقعده المرض والإنهاك والعجز عن مواصلة هذا الطريق النافع، والمسيرة المباركة، ووالله إن طالب العلم والداعية والمعلم والموجه ليشعر بالفخار والسعادة والإعجاب والتقدير والإجلال وهو يستمع لدروس سماحة الشيخ وتوجيهاته وفتاواه وهو يرقد على سرير المرض، يعجز عن الصوم وعن الحركة بل وحتى عن الطعام والشراب، ومع ذلك يصر على تلك المشاركات المؤثرة، وهذا مبعث الإعجاب والتقدير أن يكون هؤلاء هم ذخيرة هذه الأمة وفخرها، وفي مقابل ذلك يشعر بالتقصير والذنب بل والخجل وهو يقارن حاله بحالهم، فالحق أن شيخنا رحمه الله مدرسة في العطاء والبذل، والعلم والتعليم، فهو بحر لا ساحل له، وفضاء لا منتهى له في شتى العلوم والفنون، يميزه عن غيره قوة البناء، وعمق الفهم، ومن حقه على هذا الوطن عمومًا وأبناء منطقته خصوصًا، وتلاميذه على الأخص أن يبرزوا معالم التأسي والاقتداء، وجوانب الإفادة والاستفادة، وأن يؤدوا هذا الحق في صور شتى، ومشاركات مختلفة، لأن تلاميذ العالم يعول عليهم بدرجة كبيرة في هذه الجوانب، لما لهم من طول الملازمة، والمعرفة بالظروف والأحوال، والوقائع والقرائن التي عايشوا من خلالها توجيه العالم وتعليمه وإفتاءه، وهي حيثيات مؤثرة بدرجة كبيرة في إبراز حقيقة مواقف العالم ومعالم تصرفاته مع العامة والخاصة، وغير خافٍ على الوسط العلمي أن التلقي من العالم لا يماثل ولا يقارن بالاستفادة منه من خلال الوسائل المختلفة، ذلك أن المجالسة والملازمة ليست مقصودة في شأن إدراك العلم فحسب، وإنما العلم تزكية وتربية وتعليم، وطالب العلم يفيد من شيخه التأسي والاقتداء في علمه وتعليمه وسمته وهديه ومواقفه مع القضايا المختلفة، ولقد أحسنت جامعة القصيم وهي الجامعة التي تمثل موقعًا قريبًا من

المكان الذي نشأ فيه الشيخ وترعرع، وعاش طيلة حياته في مدينة العلم والعلماء، محافظة عنيزة الفيحاء، التي شرفت بأن تكون موطن علماء أجلاء، وعلى رأسهم شيخنا الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله، وشيخه العلامة الشيخ عبدالرحمن ابن ناصر السعدي رحمه الله، وغيرهم. أقول أحسنت الجامعة حينما بادرت إلى عقد هذه الندوة المباركة «**جهود الشيخ محمد العثيمين العلمية**» التي عنيت برصد جهود الشيخ رحمه الله العلمية وإبرازها لطلاب العلم والعلماء، وحينما علمت بها لم يكن لي أن أتأخر وأنا أستشعر عظم الواجب عليّ وقد شرفني الله بالنهل من علم الشيخ الغزير والتلقي عنه، وملازمته في الفترة الأخيرة من حياته من عام ١٤١٣هـ وحتى توفاه الله، وشرفت قبل ذلك بالدراسة النظامية على يد سماحته، غفر الله له، وقد شدّني وأثّر في نفسي بل وفي رؤيتي ومنهجي جانب من جوانب حياته العلمية لا أظن أحدًا يزايد على أهميته ودوره في معالجة الانحرافات التي يعاني منها الشباب على وجه الخصوص، وتمثلت في الغلو والإرهاب والتطرف، إنه الجانب الذي لا يسع أحدًا السكوت عليه، لأن أضراره وامتداد آثاره تصل إلى الجوانب الأمنية التي هي عصب الحياة اليومية، وما حوادث التفجير والتكفير عنّا ببعيد، وقد كان لشيخنا رحمه الله النصيب الأوفى في بيان هذه المسألة بيانًا وافيًا، وإيضاح علاقة الحاكم بالمحكوم، والراعي بالرعية، والرعية بالراعي، ومعرفة الحقوق والواجبات في الإمامة والجماعة حتى تكون هذه الوحدة المتمثلة في الولاية الشرعية والقيادة الحكيمة واجتماع الرعية عليها في بلد الإسلام وموطن الرسالة، ومهبط الوحي ومأرز الإيمان المملكة العربية السعودية بمنأى عن الانحراف، وما من شك أن بيان العلماء مهم جدًا، لأن تلك الانحرافات ليست سلوكيات وتصرفات مجردة، وإنما هي انحرافات فكرية نتج عنها العنف والإرهاب، والفكر يقابل بالفكر، ويصحح بالبيان الشرعي المؤصل، وقد شاركت فترة ليست بالقصيرة جاوزت خمس سنوات في البرامج المتميزة، والمشاركات المؤثرة التي وجهتها الدولة ـ أيدها

الله ـ للمتورطين في قضايا الفكر عن طريق مركز الأمير محمد بن نايف للرعاية والمناصحة، وكنت اعتمد كثيرًا على مواقف شيخنا رحمه الله وأقواله وفتاواه، وكان لها أثر عميق في المعالجة، وسببًا رئيسًا للإقناع، ولذا آثرت أن يكون بحثي في هذه الندوة المباركة عن: (**جهود الشيخ محمد العثيمين: في السياسة الشرعية وأثر ذلك في تحقيق الأمن الفكري**)، وقد كنت عزمت على أن أدون هذه الجوانب العلمية في بحث مستفيض، وجمع يقرب من الاستقصاء، وجمعت مادة علمية كبيرة لا يستهان بها، إلا أنني مع كثرة الانشغالات، وتوالي الظروف حال ذلك دون استكمال هذا البحث في الفترة المحددة لاستقباله، وبقيت مترددًا بين الإكمال ولو في فترة ما بعد المؤتمر أو تحويل ذلك إلى ورقة عمل، أشرف بها في المشاركة في هذه الندوة، ويبقى البحث متطلبًا هامًا أستكمله فيما بعد، وهذا ما عزمت عليه، وأستبيح الأخوة القائمين على الندوة عذرًا على هذا التصرف الذي فرضته ظروف الوقت، وألخص مشاركتي في النقاط الآتية:

١ـ مفهوم السياسة الشرعية:

عرفت بتعريفات كثيرة، منها العام ومنها الخاص، لكن الجزء الذي يهمنا في هذه الورقة تعريفها بأنها: كل تدبير أو إجراء صادر عن ولاة الأمر مما لم يرد فيه نص خاص أو التي من شأنها التغير والتبدل بما يحقق مصلحة الأمة وتتفق مع أحكام الشريعة وأصولها العامة[١]، وهي تصرفات شرعية، تعود إلى تقدير المصالح والمفاسد والموازنة بينها، وتراتيب إدارية، وتنظيمات تخضع لاعتبارات كثيرة تعود إلى مبدأ المصالح المرسلة، ولذلك قد تستغل باعتبار أنه ليس ثمة دليل خاص فيها.

---

(١) انظر: فقه السياسة الشرعية في علم السير، ١/ ٥٠ـ٥٢، والمدخل إلى السياسة الشرعية، عبد العال عطوه، ص ٤٧، والسياسة الشرعية، عبدالوهاب خلاف، ص ٧.

٢ ـ مفهوم الأمن الفكري:

يعد مفهوم الأمن الفكري من المفاهيم الحديثة التي لم تعرف قديماً عند العلماء بلفظها، وإن كان للشريعة شأنها في اعتباره، باعتبار أن من مقاصدها حفظ الدين والعقل، ولهذا لم نجد لها تعريفًا محددًا عند السابقين، لكن وردت عدة تعريفات عند بعض الباحثين المعاصرين، لعل من أبرزها: تحقيق الطمأنينة على سلامة الفكر والاعتقاد؛ بالاعتصام بالله، والأخذ من المصادر الصحيحة، مع التحصن من الباطل، والتفاعل الرشيد مع الثقافات الأخرى، ومعالجة مظاهر الانحراف الفكري في النفس، والمجتمع[1].

٣ ـ عناية سماحة الشيخ محمد العثيمين رحمه الله ببيان الحكم الشرعي، والرؤية الحكيمة في مسائل العلم عمومًا، والسياسة الشرعية خصوصًا من خلال دروسه:

لقد كان لشيخنا رحمه الله عناية بارزة في بيان الحكم الشرعي، المقرون بالدليل والتعليل، المبني على الحجة وإيضاح الحق، وكان يقول رحمه الله: إن معرفة الأحكام مجردة عن معرفة ظروف وأحوال الوقائع التي هي متعلق هذه الأحكام، ومجردة عن اعتبار أو معرفة أحوال وظروف المكلف بتنفيذها، يجعل هذه الأحكام في حقيقتها ليست هي الأحكام الشرعية المبنية على أساس شرعي يراعي الظروف والوقائع؛ لأن الأحكام الشرعية تنفذ وتطبق على الوقائع، مراعية الظروف الزمانية والمكانية، وأنها تتأثر بهذه الظروف، وكذلك التكليفات الشرعية يلاحظ فيها حال أو أحوال كل مكلف؛ ولا يكفي أن يقال: إن كل بالغ وعاقل مكلف بهذا الحكم بغض النظر عن حالته، وظروفه، أو الظروف المحيطة به، فإن مثل هذا القول قاصر، أو مجمل

(١) انظر: بناء المفاهيم ودراستها في ضوء المنهج العلمي "«مفهوم الأمن الفكري أنموذجًا»، د. عبدالرحمن ابن معلا اللويحق، ص ٣٦، والأمن الفكري الإسلامي، د. سعيد الوادعي، نشر في مجلة: الأمن والحياة، عدد: (١٨٧) ١٤١٨ هـ.

فيه تشويش وعدم وضوح في الرؤية، وكان رحمه الله يطبّق ذلك من خلال دروسه، فكان يرى فيها رؤية حكيمة تورث طلابه القناعة، والأخذ بقوله، والاعتماد على طريقته، فهو في ذلك يبين القول ويوضحه، ويدعم ذلك بالدليل والتعليل، وكل ذلك من الرؤية الحكيمة المتوازنة التي تزرع التربية في الطلاب.

٤ ـ الكتب التي اختارها ودرسها طلابه في هذا المجال:

قد اختار رحمه الله لطلابه عددًا من الكتب التي انتقاها بعناية، واستشار فيها طلابه، لتكون لهم منارة للعلم، وسبيلاً للفهم، إضافة إلى التعليقات والشروح التي ترد في دروسه عند تطرقه لبعض مفردات السياسة الشرعية سواء في الحديث أو الفقه أو الأصول أو التفسير، مما يؤكد على اهتمامه بهذا الفن، وحرصه على تعليمه للطلاب وإثراء معارفهم به، وقد شرح رحمه الله كتابين من كتب السياسة الشرعية هما:

١ ـ رسالة رفع الأساطين في الاتصال بالسلاطين، للشوكاني.

٢ ـ رسالة السياسة الشرعية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهذه الرسالة العظيمة التي انتقل إليها في دروس التفسير، وهو يشرح آية الأمراء، بعد أن فصل فيها القول أراد أن يزيد المسألة بيانًا ووضوحًا، فجعل درس التفسير تعليقًا على هذا الكتاب، وكان له في هذا الدرس نفائس عظيمة مؤثرة في المعالجات الفكرية.

٥ ـ موقفه رحمه الله من مظاهر الانحراف الفكري والحوادث التي حصلت في عهده:

حصلت في عهد الشيخ رحمه الله مظاهر عدة من الانحراف الفكري، وكان له دور بارز في تبيين الحق وإظهاره، ونصح الأمة وتوجيههم وإرشادهم، متأسيًا في ذلك بسلف الأمة الصالح، ولذا كان منارة للعلم، ومنهلاً يقصده من أراد الحق، وتمثلت أبرز مظاهر الانحراف التي حصلت في عهده في التكفير والتفجير، وبعض القضايا

التي كانت لموقفه رحمه الله وفتاواه أثرها الكبير في بيان الحق، ورد الباطل، والنصح والتوجيه والإرشاد، عبر خطب المنبر، والفتاوى القوية المؤثرة، بل والمناظرات التي جرت مع بعض أطراف تلك القضايا مما حقق - بحمد الله - نجاحًا كبيرًا، وأثرًا بارزًا، لا ينكره أحد، وكان له سرٌّ من أسرار القبول عند الناس، والتمكين له في الأرض، وتقبل فتاواه، ولذا كانت ترد إليه الإشكالات والقضايا والنوازل، بل حتى المواجهات التي تقع بين بعض الجماعات في بعض البلاد الإسلامية كمصر والجزائر والشيشان وغيرها، بل حتى في البلاد الأوروبية والأمريكية، كان طلابه مصدرًا لنشر أقواله وفتاواه التي وضع الله لها القبول، وكان يرشد الناس ويوجههم في كل انحراف يراه، بما يبين الحق، ويدحض الباطل وشبهه، بوسائل متعددة، فكان نورًا في الظلماء، وشمسًا تشع لتذهب الليالي الدهماء، فرحمه الله رحمة واسعة، هذا من حيث البيان القولي، ويكتمل هذا البيان بتجسيد تلك الأقوال والرؤى والأحكام بالتطبيق العملي، وهذا ما جسده شيخنا رحمه الله في صور عديدة منها:

٦ - تجسيد هذا الموقف الشرعي في التواصل مع ولاة الأمر وتقديرهم، والثناء عليهم والدفاع عنهم:

كان شيخنا رحمه الله له اتصال وتواصل مع ولاة أمر هذه البلاد - أيدهم الله - وكان يقدرهم ويجلهم ويدافع عنهم من رامهم بسوء أو قصدهم بمكروه، وكان في ذلك يتمثل في ذلك أخلاق العلماء السابقين، وسلف الأمة الصالحين، وكان يتواصل معهم ويغشاهم في مجالسهم ويدخل عليهم، وينهى عن غيبتهم وسبهم، ويرى أن لهم مكانة جليلة، وذلك لتطبيقهم شرع الله، وحكمهم بما أنزل الله، وسعيهم لرضا الله، ويقول رحمه الله: «إننا لا نعلم بلادًا كهذه البلاد وحكامها أحسن تمسكًا بالشريعة الغراء وتطبيقًا لها، وكان اتصاله رحمه الله مع ولاة الأمر بحد ذاته يعد تطبيقًا للسياسة الشرعية، وعملاً بالعلم الذي وهبه الله إياه، وكان له موقفه البارز في إنكار الغيبة

والتحدث في أعراض الولاة، وبيان خطورته وشدته، وبيان ما لهذا السبيل من عواقب وخيمة، تؤدي إلى التنفير منهم، والتأليب عليهم، والسعي إلى الإخلال ببيعة الإنسان لهم، ولا يعني ذلك المداهنة أو المصانعة، بل إذا كان ثمة أخطاء، وهي واقعة يقر بها ولاة الأمر - وليس الأمر غريبًا - لأن فرض المثالية يستعصي على الواقع، لكن تلك الأخطاء سيما التي تنسب إلى الحكام والمسؤولين سبيل معالجتها هو النصح بحكمة وإيضاح الحق بتعقل، واعتماد النصح سرًا لأنه أدعى للقبول، وهذا الاتصال يكشف لنا السر الذي يجعل ولاة الأمر يبادلونه حبًا بحب بل وإجلال وتقدير، متقبلين لقوله، حريصين على الاستفادة منه ومن علمه، فرحمة الله عليه.

٧ - المؤلفات التي صدرت لسماحته:

من يلاحظ شيخنا رحمه الله يجد إقلاله من التأليف والتصنيف الذي يتولاه بنفسه، وذلك نظرًا لقيامه بأعباء متنوعة من التعليم والفتيا، والدعوة إلى الله وغير ذلك، مما جعل مؤلفاته تعجز عن الوفاء بالعلم الغزير الذي آتاه الله إياه، لكنه رحمه الله من القلائل والنوادر الذين يعد تعليمهم وطرحهم في الدروس تأليفًا، فهو رحمه الله بما يقوله ويحرره، ويجمع فيه ما يجعله سهلاً ممتنعًا، رصينًا في بنائه، قويًا في طرحه، محررًا في عبارته، يتحاشى فيه التكرار، وقد صدر لسماحته في هذا المجال ما سبقت الإشارة إليه من تعليقه على كتابي شيخ الإسلام والشوكاني رحمهما الله.

٨ - جوانب التميز لدى الشيخ في هذا المجال:

تميز شيخنا رحمه الله في هذا المجال تميزًا كبيرًا، وكان في ذلك القدوة والنبراس الذي يحتذي به من أراد السير على نفس الخطى، ورام سلوك سبيل المؤمنين، والحفاظ على الجماعة والتزام المنهج الصحيح، ولعل مما يميز شيخنا رحمه الله عدة أمور، أبرزها:

١ ـ حرص شيخنا على اتباع منهج السلف في الاعتماد على الدليل، وحرصه على موافقة السنة، والسير على خطى الأولين، حتى وصل إلى ما وصلوا، وتميز وأبدع، والتزام منهج السلف الصالح فيه النجاة من الفتنة، والبعد عن الزلل، وسلامة الرأي والتصرف.

٢ ـ مما يميز شيخنا رحمه الله تأثره بشيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله واعتماده لأقوالهما دون تعصب لهما، ولا يخفى على ذي لبٍّ منزلة هذين العالمين، وما وضع الله لهما من القبول، وما حصل من أثر وانتفاع بعلومهما، ولهما رحمهما الله منهجية فريدة، تعتمد الرؤية الوسطية والشمولية واستشراف المستقبل البعيد، وذلك في جميع شؤون الحياة، وعلى الأخص التعامل مع الولاة ومع سائر الناس، وهذا ما انعكس على شيخنا وزاده تمكنًا، خصوصًا في مجال السياسة الشرعية، ويكفي في ذلك أنه اعتمد كتاب شيخ الإسلام رحمه الله في السياسة الشرعية وشرحه، وأثنى عليه، وربما مرت عبارات يقول عنها: تكتب بماء الذهب، وهذا مما يؤكد لنا قوة التأثر، وحسن الاستفادة.

٣ـ أنه كان يبني فقهه على الدليل، ويقرنه بالتعليل أحيانًا، ويبين الغاية والحكمة وأسرار الشريعة، معوِّدًا طلابه على الرؤية الشمولية، المبنية على التأصيل وضبط المسائل، وهذه المنهجية المتميزة لها أثرها على بناء الشخصية العلمية، وسعة الأفق، ومرونة الاجتهاد، وكلها توافرت لشيخنا رحمه الله.

٤ ـ أرى أن من أسباب التميز لشيخنا رحمه الله في هذا المجال عنايته بالتطبيق والعمل، وظهور أثر العلم عليه، ولذلك يجد المتلقي والطالب أثر العلم عليه في حياته رحمه الله، وما من شك أن من أسباب بركة العلم وزيادته العمل به، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢)، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال: ٢٩)، وما أكثر

ما سمعناه يحثنا على ذلك، ويؤكد عليه، وهذا تبين في دخوله على ولاة الأمر، ونصحهم سرًا، والتحذير من كثير من مظاهر الانحراف الفكري، وارتباطه وانتمائه وحبه لهذا الوطن، وتعبيره عن ذلك.

ونجد نفسه العميق في ذلك في الجزئيات الخاصة بالسياسة الشرعية في غيرها من الفنون، كالتفسير والفقه، وهذا كله من سعة علمه رحمه الله، وكثرة اطلاعه، وقوة إدراكه، فرحمه الله رحمة واسعة.

٩ ـ أثر جهود الشيخ العلمية والعملية في التماسك والتعاضد مع ولاة الأمر لقطع الطريق على المتربصين:

وذلك بما وضعه الله من القبول للشيخ، ورجوع الناس إلى فتاواه ومواقفه، وحرصهم على سؤاله والاستفادة منه، وقد كان: حريصًا على بيان الحق، وعلى الإلزام به، وعلى الإقناع والتأثير فيمن حوله من الناس، ولعل أبرز ما يذكر من ذلك رجوع بعض أهل الجزائر لفتواه في تحريم الخروج على ولاة الأمر، وما حصل بسببها من حقن للدماء، وحفظ للممتلكات، وكل هذا يدلنا على القبول الذي وضعه الله للشيخ عند الناس، ومحبة الناس له ولأقواله، وحرصهم على الاستفادة من علمه، بغية أن يصلوا إلى الطريق المستقيم، والنهج القويم، وذلك تحقق بفضل الله عز وجل، ثم بفضل ذلك الترابط والتعاضد والتماسك مع ولاة الأمر، وهو يجسد في هذا الموقف الشرعي.

١٠ ـ تقدير ولاة الأمر ومحبتهم للشيخ رحمه الله، وأثر ذلك على مواقف الشيخ من الفتن والقضايا:

لا مزايدة على أن بلادنا المملكة العربية السعودية قامت على رعاية العلم والعلماء، وهذا الترابط بين القيادة والعلماء من الثوابت التي تأسست عليها المملكة

منذ أن تعاقد الإمامان الإمام محمد بن سعود والإمام محمد بن عبدالوهاب رحمهما الله وهذا الارتباط له دلالته الأكيدة على قوة العلاقة، واستمر هذا النهج السديد إلى وقتنا، فها هم ولاة أمرنا ـ أيدهم الله ـ يخصون العلماء بالإجلال والتقدير واعتبار مكانتهم، وحفظ حقوقهم، وشيخنا الشيخ محمد العثيمين رحمه الله من أولئك العلماء الذين كان ولاة أمر هذه البلاد ـ أيدهم الله ـ يقدرونهم، ويرجعون إلى فتاواهم وآرائهم، وكان مقبولاً عندهم، محترمًا لديهم، فكان في ذلك مسددًا موفقًا، وأثمر هذا حماية لهذه المقاصد الشرعية أن تختل، ولا أدل على حب ولاة الأمر للشيخ من رعايتهم له وقت المرض، وإصرارهم على استنفاذ كل وسيلة لمعالجته، فحفظ الله لنا قيادتنا، ورحم الله شيخنا.

١١ـ موقف الشيخ من فكر التكفير والتفجير:

هذه الجزئية تقع في رأس الهرم في الانحرافات، وإفرادها بالحديث لبيان موقف الشيخ رحمه الله منها، وهو موقف ينبع من تمسكه بالمنهج القويم، منهج أهل السنة والجماعة، ولذا كان يعظم شأن التكفير ويبين خطورته خصوصًا تكفير المعين، ويبين موقفه من ذلك في خطبه وفتاواه ودروسه، ويبين منهج العلماء في ذلك، وكيف أنهم كانوا لا يكفرون أحدًا إلا بعد ظهور الحجة والبينة عليه، وكان يعالج هذه المسألة ببيان ضوابط التكفير وشروطه التي لا بد من توافرها، كأن يكون عالماً بمخالفته الموجبة للكفر، وأن يقول الكفر أو ما يفعله مختاراً مريداً فلا يكفر المكره على فعل أو قول الكفر، وألا يكفر المسلم إلا بعد إقامة الحجة عليه وبيان المحجة له بصورة واضحة جلية[١]، وكان يناقش كثيرًا من يطلقون ألسنتهم في التكفير دون حجة أو بيان، ويبين أن التكفير من أعظم صور الانحراف، والوصول إلى أبعد من ذلك كالتفجير والخروج على ولاة الأمر، وقد خطب خطبة كاملة بعد تفجير الخبر

(١) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ص ٨٤ـ٨٩.

عام ١٤١٤هـ بين فيها حرمة التكفير والتفجير، وبيان مخالفات التفجير الشرعية[(١)]، وشدد على حرمة التفجير، وأنها قتل لأنفس بريئة، وتدمير للممتلكات والمنشآت، وإفساد وتخريب في الأرض، وترويع للآمنين، وكان في ذلك متبعًا قوله بالأدلة والقواعد الشرعية، مستخدمًا أسلوبًا من أساليب التنفير بالإقناع والحجة، وكذلك كثير من فتاواه التي حارب بها فتنة التكفير والتفجير، وبين فيها عظم وخطورة هذا الأمر، وأنه سبب كبير للانحراف الذي يقود إلى استحلال الدماء، وغير ذلك من الفتن التي تنشأ من هذه الفتنة.

١٢ـ موقف الشيخ من صور الجهاد المعاصرة:

الساحة اليوم خصوصًا في واقع الشباب تعاني كثيرًا من الانحرافات، ولعل من أبرزها تلك المشاركات التي زجوا بأنفسهم فيها طلبًا للجهاد الذي انحرفت فيه ضوابط كثيرة، وشيخنا رحمه الله من العلماء الذين لهم دور كبير في رؤية وسطيته تبين حقيقة الجهاد وشروطه، وتحذر من الانحرافات فيه، ولعل مما يذكر لشيخنا رحمه الله وقوفه في فتنة الجزائر التي راح فيها الآلاف، وكان ينكر على أصحابها، ويبين لهم الحق فيها[(٢)]، ويحرص على حفظ الدماء، وكانت اتصالاته معهم ومناظرتهم والسماع منهم دليلاً على حبه لنزع فتيل الفتنة، وكان يناقشهم فيها ويحرص على سماع شبهاتهم، ويرى أن خروجهم هذا بما يسمونه جهادًا على ولي أمرهم ليس بجهاد، وليس من أمر الجهاد بشيء، ولذلك كان يبين خطورة مثل هذه التجاوزات، وتلك التصرفات، ويبين ضوابط الجهاد، وأنَّ الشيطانَ يدخل إلى الناس لإفساد دينهم من باب الإفراط والغلوِّ في الدِّين، كما حصل من الخوارج، وأنَّ طريق السلامة من الفتن الرجوع إلى أهل العلم، والتمسك بالكتاب والسنة، وأعظم من ذلك من يرى

(١) انظر إلى هذه الخطبة في موقع الشيخ الرسمي على شبكة الانترنت.

(٢) انظر: فتاوى العلماء الأكابر فيما أهدر من دماء أهل الجزائر، ص ٧١، وما بعدها.



أن قتل النفس وقتل المسلمين والمعاهدين وترويع الآمنين وترميل النساء وتيتيم الأطفال وتدمير المباني على من فيها يكون جهادًا في سبيل الله، والله المستعان.

١٣- موقف الشيخ من غيبة العلماء وولاة الأمر والإنكار على الولاة:

وهما من الانحرافات التي تجر على المجتمع ويلات، وتتداعى حتى تصبح فتنًا متلاحقة، وكان له رحمه الله موقف بارز ينكر فيه على من تكلم في العلماء، وقدح فيهم، مبينًا مكانتهم وعلو منزلتهم، وأن خطأهم معذورون فيه، ويبين رحمه الله أن من حقوق الرعاة على رعيتهم أن يناصحوهم ويرشدوهم، وأن لا يجعلوا من خطئهم إذا أخطأوا سلمًا للقدح فيهم ونشر عيوبهم بين الناس، مبينًا أن ذلك يوجب التنفير عنهم وكراهتهم.

١٤- موقف الشيخ من الخروج على الحكام بالقول والفعل:

وهي فتنة عظيمة لها أثرها في اختلال الأمن بمفهومه الشامل، وموقف السلف من هذه المسألة مبني على ما ورد من نصوص قاطعة تحرم الخروج وتبين خطورته، وشيخنا رحمه الله على هذا المنهج القويم، فقد كان يشدد رحمه الله على مسألة الخروج على الحكام، ويرى أن الخروج عليهم فتنة كبيرة، وبلية عظمى، يتحقق فيها من الشر ما الله به عليم، متأسيًا بسلف الأمة رحمهم الله، فيرى أنه لا يجوزُ الخروجُ على الأئِمَّة ومنابذتُهم بالسيف إلا حين يكفرون كفرًا صريحًا، وأن يُعلم بكفرهم، والعلماء هم الذين يقدّرونه، حتى مع وجود الكفر البواح لا بد أن تراعى قواعد الشريعة في ذلك فتتحقّق المصلحة في ذلك وتنتفي المفسدة، وتقديرها لأهل العلم أيضًا، ووجود القدرة لدى المسلمين على إزاحة الحاكم، وكان يرى أن الخروج عليهم خلع للبيعة التي على الشخص، ونزوح عن الجماعة، ولذا كان يرى أن ما يتحقق من الخروج على ولاة الأمر من الشر أكبر مما يتحقق من الخير، كما ذكر ذلك

شيخ الإسلام في منهاج السنة في قوله: « وقل من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير»[1].

١٥ـ موقف الشيخ من التحزب والجماعات:

وهي صورة من الانحراف الذي لا ينحصر أثره على المتحزب، وإنما يطول ضرره المجتمع، حيث إن التفرق والخلاف شر وضرر ممتد، وشيخنا رحمه الله له موقف بارز، وجهد كبير، وكان رحمه الله كثيرًا ما يناصحهم بأن يكون هدفهم هو اتباع الكتاب والسُنَّة والسير على منهج أهل السُنَّة والجماعة، وأن يكونوا جميعاً أتباع السلف الصالح بدون تحزبات أو جماعات.

وكان رحمه الله كثيرًا ما يبين أنّ هذا هو الطريق السويّ الذي يمنع الخلاف، ويزيد في ائتلاف المسلمين واجتماعهم، لأنَّ النَّاس ما داموا تحت لواء دولة وحكم وسلطان، فلا معاهدة ولا مبايعة ولا تحزبات ولا جماعات وتكتلات، وكان كثيرًا ما ينصح طلبة العلم أن يتخلوا عن الطائفية والحزبية، بحيث يعقد الولاء والبراء على طائفة معينة أو على حزب معين، ويبين أن هذا خلاف منهج السلف، فالسلف الصالح ليسوا أحزابًا، بل هم حزب واحد ينضوون تحت قول الله عز وجل: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٨)، فلا حزبية ولا تعدد ولا موالاة ولا معاداة إلا على حسب ما جاء في الكتاب والسنة.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الجهد، ويجعله خالصًا لوجهه، وأداء لحق شيخنا، وأن يرحمه ويتقبل منه، ويسكنه فسيح جناته، وأن يبارك لنا فيمن بقي من علمائنا، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين..

(١) انظر: منهاج السنة النبوية، ٤/ ٥٢٨.